

المحاضرة الرابعة المنهج العلمي الشامل في دراسة الأديان

المراد بالمنهج الشامل هو المنهج الذي يشمل جميع المناهج السابقة، حيث يهتم بعرض ما يتناوله بالدراسة عرضاً أميناً، مع المناقشة، والمقارنة، والتحليل النقدي، ورد الباطل وبيانه، وقد يتم ذلك في قالب حوار، أو مناظرة.

وهذا المنهج الشامل هو الأمتل في تناول دراسة الأديان، إذ وصف الأديان وحده لا يغني، كما أن المقارنة غير الموجهة غير مجدية، والنقد والردود قبل استيفاء العرض والمناقشة قد يكون فيها مجانية للأمانة والإنصاف، ومن تتبع كتب المسلمين في دراسة الأديان يجد هذا المنهج الشامل.

الباحث أحمد شلبي ومنهجه في دراسته المقارنة للأديان من خلال كتابه: مقارنة الأديان: اليهودية والمسيحية

قبل كل شيء بسط الباحث أحمد شلبي رحمه الله رداء التضرع إلى الله عز وجل؛ كي يعينه وبوقفه بتكميل كتابه هذا، والذي كان الغاية من تأليفه كما قال: "الطمع في رحمة الله، إنه القربى التي أمسكها بإحدى يدي وأمسك كتاب (الإسلام) باليد الأخرى وألوح بهما في شكر وتواضع، ذاكرا أنهما ساعدا على تقديم الهداية لملايين البشر، وإنقاذهم من التبشير ووسائله"، وهذا ما انتهجه الفيلسوف أبو الحسن العامري أيضاً، وهذا هو هدف كل مسلم، وهو كسب رضى الله تعالى وتوفيقه وبه سيصل إلى الحقيقة والنجاح في كل شيء بعد الجد والاجتهاد والأخذ بالأسباب.

وقد نهج الأستاذ أحمد شلبي في دراسته للأديان ومقارنته لها منهج الاستقراء والوصف والتحليل ومنهج النقد العلمي، فيستقرئ ويتتبع أدلة كل فريق؛ مؤكداً ذلك بقوله: فكانت أنتتبع النصوص لتفودني إلى الغاية"، لكي يقارن بها بين الأسس المشتركة بين الأديان، ويقوم بوصف تلك الأدلة وتحليلها تحليلاً موضوعياً نقدياً؛ مبنياً على الوصف الظاهراتي القائد بنفسه إلى الغاية؛ أو بشكل آخر كان يستقرئ الأدلة

والنصوص، كي تتبين الفكرة الغالية بنفسها دون فرض الحكم عليها بالفكر الشخصي الذاتي البعيد عن مضمون موضوعه أو المفهوم الأصلي لتلك الفكرة الذي من أجله استقرت الأدلة، وهذا المنهج هو المسمى بمنهج الوصف الظاهراتي (الفينومينولوجي).

المناهج المتبعة عند الدكتور احمد شلبي في دراسته المقارنة للأديان هي كالاتي:

أولاً: المنهج التحليلي والنقدي العلمي

وهذا المنهج يتبين في طرح الشلبي لفكرة أن المسيحية كثيرا من معتقداتها وشعائرها من البوذية، فالنتيثة والأقانيم وقصة الصلب للتكفير عن خطيئة البشر والزهد والتخلص من المال للدخول في ملكوت السماوات والرهبانية كلها مستعارة من البوذية التي سبقت المسيحية بعدة قرون"، وهذا منهجه في التحليل أو البيان النقدي، ولكن لم يكن ليعلق وينقد قبل إيضاح ذلك الفكر النقدي من الأدلة المستقاة من مصادرها الأصلية، وهنا تتبلور منهجية أخرى للباحث من مناهج البحث العلمي، وذلك إعطاء الصبغة العلمية على الشيء من قبل أهلها، ثم استدراك الحكم عليه من قبلهم، والبناء النقدي على ذلك، ويتضح أكثر بأن دراسته للأفكار المتعلقة بالأديان، كانت تسري حسب ما يفهمه أهل ذلك الدين في الأغلب، كما يتبين ذلك في خطة بحثه مثل نماذج من التشريع المسيحي: العبادات، تشريعات حول الأسرة الاهتمام بكثرة النسل، وفقر في التشريع، والكنيسة وأسرارها: طقوس الكنيسة، وأسرار الكنيسة والرهبنة والأديرة، مراحل الرهبنة، أسس الرهبنة.

ففيما مر بين الباحث ما هو سائد في الفكر المسيحي منه العبادات، تشريعات حول الأسرة، الاهتمام بكثرة النسل الكنيسة وطقوسها وأسرارها؛ إلا أنه في الفقرتين الأخيرتين اللتين هما: فقر في التشريعات، والرهبنة اقتباس من الفكر الهندي، قام بتحليل نقدي مخالف لما يعتقد النصارى بتتبعه أدلة أوصلته إلى تلك النتيجة.

ويتبين هنا أن الموضوعية في مقارنة الأديان تكون في سرد الأدلة بأمانة علمية من غير تقطيع ولا تأويل بحيث يزيغ الفكر الأصلي عن الموضوع؛ أما إذا أوصل الدليل إلى النتيجة المخالفة للفكر السائد، فلا يعتبر ذلك خروجاً عن الموضوعية؛ وإلا فلا تبقى في دراسة الأديان ومقارنتها، ودراسة العلوم الأخرى قيمة ومعنى فيما إذا اختزلنا حقيقة الأشياء على السائد والأغلب من فكر القوم؛ لأن الحق لا يعرف بالأغلبية ولا بالكثر؛ وإنما يعرف بالحق أهله؛ سواء كان واحداً أو جماعة.

ثانياً: المنهج التحليلي النقدي المبني على الوصف الظاهراتي

إن دراسته المقارنة للأديان مبنية على التحليل النقدي المبني على الوصف الظاهراتي كما مر؛ لكي يصل بالإنسان إلى الغاية المرجوة من الفكرة المقارنة، ويتبين هذا من خطة بحثه في المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية.

الفكر المصري في المسيحية.

الوثنية في المسيحية.

مقارنة العقائد الوثنية بعقائد المسيحية الحالية.

مقارنة بين محاكمة بعل ومحاكمة نبي الله عيسى عليه السلام.

مقارنة بين حياة بوذا وحياة نبي الله عيسى عليه السلام.

الكنيسة في خدمة السياسة الغربية.

وكذلك التعريف بالأنجيل:

إنجيل متى، إنجيل مرقس وإنكار ألوهية المسيح، جثمان القديس مرقس بين القاهرة والبنديقية، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا ومن الذي كتبه، حديث عن إنجيل برنابا وعن برنابا مؤلفه، المسيح ينكر القول بألوهيته ويقرر بشريته.

ومن يتأمل فيما سبق يجد أن تلك العناوين هي مضمون نقده لما عند النصارى من فكرة التثليث ومحاكمة المسيح عليه السلام، وتعقيبه بخدمة الكنيسة السياسة للغرب؛ والمحور الآخر: التعريف بالأنجيل وألوهية المسيح في إنجيل مرقس مستدلاً بقول المسيح نفسه، وتحليله النقدي لكتابة إنجيل يوحنا، وكلامه في إنجيل برنابا، فكل هذا دليل على استخدامه منهج التحليل النقدي المبني على الوصف الظاهراتي.

ثالثاً: منهج النقد التاريخي

مما يؤكد التزام الأستاذ الشلبي رحمه الله بمنهجه هذا، عرضه لأفكار تحليلية نقدية تجاه فكر وديانة؛ تخالف ما عليه غالب أهل ذلك الفكر والديانة، ولكن مستدلاً بأقوال أصحابها وأدلتهم، وأهل الاختصاص منهم، كي لا يتهم أن ذلك من عنده، كما في عرضه أن الكنيسة هي في خدمة السياسة الغربية الاستعمارية على الدول النامية، فيستدل بأقوال المختصين بشؤون السياسة والدين من المسيحيين، فيقول: "ويندهش الباحث عندما يرى كبار رجال الكنائس يتناسون المسيحية ومبادئها الأصلية السمحة، ويجندون أنفسهم لخدمة الاستعمار، وهم يتخذون الدين المسيحي وسيلة للضغط على الشعوب المسيحية النامية حتى لا تتطور، وحتى تبقى بمنأى عن الرقي والتصنيع والتقدم.

يقول الدكتور احمد شلبي رحمه الله: "لست أنا الذي أقول هذا القول، وإنما هي كلمات مسيحي مثقف هو الدكتور رمزي فهيم فيقول: منذ عدة سنوات كنت أقرأ عن اجتماعات وقرارات مجلس الكنائس العالمي، ولقد فوجئت حين وجدت أن ما يتعرض له من مسائل ليست من الموضوعات الدينية التي ينتظر أن تكون هي موضوع اهتمامه، فمثلاً عقد المجلس مؤتمراً في مدينة سالنيك باليونان سنة ١٩٥٩م، قرر فيه أن السياسة هي المجال الذي يتحتم على الكنيسة في دول إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية أن تعمل فيه،

والغريب أن المجلس يقرر في نفس المؤتمر أن المبدأ الغربي الذي يقضي بفصل الدين عن الدولة، لا يمكن اقتباسه في الدول النامية، وهنا يثور التساؤل هل هناك نوعان من المسيحية أحدهما يطبق في بلاد الغرب والآخر (يفيبرك) بواسطة (الخبراء) ليعمل به في الدول النامية"، وأتى له بكلام كثير فيما يتعلق بهذا الموضوع معتمدا على حقائق تاريخية وقعت في القرن العشرين، وهذا هو المنهج النقدي التاريخي لتثبيت الحقائق، والذي بنى به الأستاذ بحثه العلمي، ويعتبر عند علماء الغرب أن هذا المنهج من الركائز الأساسية لدراسة الأديان ومقارنتها؛ لكون مصطلح مقارنة الأديان (comparative religion) هو : بيان فلسفة الأديان، وتاريخه، وأن تتخذ أصول الأديان مواضيع للدراسة العلمية بمناهج موضوعية لها أصولها وخصائصها.

رابعاً: المنهج الاستقرائي

لو نتتبع خطة بحثه نجد المنهج الاستقرائي لائحاً فيه، وذلك بالأدلة الجزئية الآتية على هذه المواضيع: اليهود في التاريخ، المنطقة وسكانها، المناطق المحيطة، تحركات العبرانيين، لغة العبرانيين، الهكسوس والعبرانيون في مصر وخروجهم منها، إسرائيل وبنوه في مصر، بعد الخروج من مصر.

خامساً: منهج ثبت المصادر والمراجع

من سبل المنهجية العلمية عنده ما يتعلق بثبت المصادر والمراجع التي ترجع إليها دراسته، يقول: من المفاخر التي أشعر بها وأحمد الله عز وجل عليها أنني اتبعت الفكرة الأصلية فيما يتعلق بالمراجع في دراسة مقارنة الأديان، فاعتمدت أساساً على المراجع الرئيسية، ودرست عقائد هذه الديانات وعرضت أفكارها من مراجعها، وكان هذا سبيلي في كل هذه الكتب".

سادساً: المنهج الموضوعي والحيادي في دراسته المقارنة للأديان

التزم الدكتور أحمد شلبي رحمه الله بمنهج الحيادية والموضوعية في دراسته المقارنة للأديان، وعهد على نفسه الوفاء به كي يخرج من كتابه مادة فنية فيما يتعلق بعلم الأديان، وفق منهجية البحث العلمي الذي هو: الاستمرارية في البحث عن المعلومات والسعي وراء المعرفة باتباع أساليب علمية مقننة"، إذ يقول: "وسرت في مقارنة الأديان قد اتخذت الصبر وسيلتي، ورحت في بحث علمي لم تتدخل العاطفة فيه، سرت والحيدة طريقي، لا أحيد عنها ولا أنحرف، فكنت أتتبع النصوص لتقودني إلى الغاية، دون أن أفرض نفسي أو فكري عليها، وكان هدفي أن أجعل الدراسة موضوعية لا ذاتية، ولا شك أن هذا هو الطريق الصواب، ولقد حاولت جهدي أن أكون منصفاً وموضوعياً وأرجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت الوصول إليه".

ويلوم الباحث بعض المفكرين الذين استعملوا علم مقارنة الأديان في بحوثهم بدون قصد الخوض فيه، ثم إنهم يقولون بالتفاضل بين الأديان بنتائج غير مبنية على مقدمات علمية، مبيناً أن علم مقارنة الأديان يخرج منها ثروة فكرية رائعة تبرز جمال الإسلام ورجحانه على سواه، فعلم مقارنة الأديان يمسك القضايا الدينية، ويشرحها ويبرز عناصرها، ويقارن بينها"، ثم قال: "كما فعلنا في قضية الألوهية حيث عرضنا اتجاهات الأديان المختلفة تجاه الله سبحانه وتعالى، وقد وضحت هذه الاتجاهات أن الفكر الإسلامي قمة شامخة، وأن ما سواه حافل بالانحراف والوثنية والتعدد، ومثل هذا ظهر عندما تدارسنا معجزات الأنبياء، والكتب المقدسة، والتشريع".